سورة التغابن

هى مدنية ، وآياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد التحريم.

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه فى السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ، وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

(٢) نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، وهنا ذكر أن الأموال والأولاد فتنة .

(٣) فى السورة السابقة حث على الإنفاق فى سبيل الله ، وفى ذكر التغابن حث عليه أيضا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَاتُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) .

الايضاح

(يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض) أى إن وجود مافى السموات والأرض دالٌّ على تنزيه الله وكماله ، وإن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له .

(له الملك وله الحمد) فهو المتصرف فى جميع الكائنات، المحمود على جميع مايخلق ويقدر، لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات.

(وهو على كل شىء قدير) فما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، ومالم يشأ لم يكن.

ثم ذكر بعض مقدوراته تعالى فقال:

(هو الذى خلقكم) أى هو الذى أوجدكم كما شاء على ماشاء.

ثم قسم هذا المخلوق فقال:

(فمنكم كافر، ومنكم مؤمن) أى فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ماتقتضيه فطرته، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ماتدعو إليه الفطرة كما جاء فى الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقد كانت الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى الحق، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم، ولكنكم مافعلتم ذلك، بل تفرقتم شيعا، وجحدتم الخالق، وكفرتم بأنعمه عليكم، بعد أن أفصح الصبح لذى عينين.

(والله بما تعملون بصير) أى وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه، وزكاء روحه، فيعطيه ماهو له أهل؛ ومن خبثت طويته، وفسدت سجيته، ودسّى نفسه بكبائر الذنوب والآثام، وسيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم فى جهنم «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النعمة الشاملة لخلق العالم كله على أتم ما يكون من الحكمة والعدل فقال:

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا

(وصوّركم فأحسن صوركم) حيث أودع فيكم القوى، والمشاعر الظاهرة والباطنة وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته؛ فالإنسان يضم روحا هو من عالم الأرواح، وبدنا هو من عالم الأشباح، وأنشدوا:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(وإليه المصير) فى الحياة الآخرة، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت، لامعقّب لحكمه وهو سريع الحساب، فاصرفوا ماخلق لكم فى شكره، والوفاء بحق نعمه المتظاهرة عليكم، ظاهرة وباطنة.

(يعلم مافى السموات والأرض) فلا تخفى عليه خافية من أمرها، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع، وقدرته الشاملة «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

ثم خص بعض مايعلمه، عناية بأمره، إذ عليه الثواب والعقاب فقال:

(ويعلم ماتسرون وما تعلنون) فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وَفْقَ مايطلبه منكم الدين، لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته.

ثم علل هذا بقوله:

(والله عليم بذات الصدور) أى لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء فى صدره، واستكنّ فى قلبه، فلا يخفى عليه مايسرّ وما يعلن.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦).

شرح المفردات

ألم يأتكم: هذا الاستفهام للتعجب من حالهم، والنبأ: الخبر الهام؛ وأصل الوبال: الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور، ومنه الطعام الوبيل أى الثقيل على المعدة، والوابل: المطر الثقيل القطر، ثم استعمل فى الضر لأنه يثقل على الإنسان

والأمر: الكفر وعبر به للإيذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل، والبينات: المعجزات، وتولوا: أعرضوا، واستغنى الله: أى أظهر غناه عنهم؛ إذ أهلكهم وقطع دابرهم.

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى — حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم فى الكفر، والجحود بآياته، وإنكار رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبيّن لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة؛ وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم، وتمادوا فى عنادهم، وقالوا: أيرسل الله من البشر رسلا؟ فحلّت بهم نقمة ربهم؛ وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فأصبحت ديارهم خرابا يبابا، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم؛ فيثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النُّهَى.

الإيضاح

(ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم التى أصرّت على الكفر والعناد، كيف حل بهم عقاب ربهم، وعظيم نقمته؛ وأرسل عليهم ألوانا من العذاب لا قِبَل لهم بها؛ فمن صاعقة من السماء تجتاحهم، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر، وتمحوهم من صفحة الوجود، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ وسيكون لهم عظيم النكال والوبال يوم تُجْزَى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم فى ذلك مدّكر ، لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بيّن أسباب ماحل بهم من النقمة فقال :

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد) أى إن ماحل بهم من سوء العذاب كان من جزاء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة؛ وقالوا: إن من العجب العاجب أن يكون هَدْيُنا على يدَىْ بشر منا لامِيزة لهم علينا بعقل راجح ، ولا بسلطان يتملكون به قيادنا ، ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا ، كما قالت ثمود : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء من عباده كما قال : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

و بعد أن طال عنادهم وتمادَوْا فى غيّهم أهلكهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ، ظاهرة و باطنة .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

شرح المفردات

زعم فلان كذا : أى ادعى علمه بحصوله ، وأكثر مايستعمل للادعاء الباطل ، بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفى لإثبات مابعده كما وقع فى الآية، لتبعثن: أى لتحاسبُنَّ وتجزَوُنَّ بأعمالكم ، والنور : هو القرآن ؛ وسمى بذلك لأنه بيِّن فى نفسه مبيِّن لغيره ، والخبير : هو العليم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة ؛ سمى بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتغابن ، من قولهم : تغابن القوم فى التجارة: إذا غبن بعضهم بعضا كأن يبيع أحدهم الشىء بأقل من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن للمشترى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ، ثم إنكارهم للنبوة بقولهم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء مافعلوا ـ أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث ، ثم بإثبات تحققه وأنه كائن لامحالة ، وأن كل امرئ سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد حين يغبن الكفار فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، ويفوز المؤمنون فى تجارتهم بالصفقة الرابحة ، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلا منه ورحمة .

الإيضاح

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أى ادعى المشركون أن لابعث ولا حساب ولا جزاء فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقالوا : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ »

فأمر رسوله بالرد عليهم و إبطال زعمهم بقوله :

(قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) أى قل لهم : إن البعث كائن لامحالة ، و إنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ستحاسبن على أعمالكم وتجزون على الكثير والقليل ، والنقير والقطمير ، وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ » الآية .

و بعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لامجال معه للإنكار — طالبهم بالإيمان بهما فقال :

(فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات .

ثم توعدهم على مايأتون وما يذرون فقال :

(والله بما تعملون خبير) فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .

(يوم يجمعكم ليوم الجمع) أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى و ينفذهم البصر ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » .

(ذلك يوم التغابن) فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين ، وفى الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِىَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِىَ مقعده من الجنة ، ليزداد حسرة » .

والخلاصة — إنه لاغبن أعظم من أن قوما ينعمون ، وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها .

ثم بين هذا التغابن وفصله بقوله :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيه — يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار لابثين فيها أبدا لايموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لافوز بعده ، لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك ، وأجلّ المخاطر .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلته وآى كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبدا ، وبئس النار مصيرا لهم .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٢) اللهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

شرح المفردات

المصيبة : ماينال الإنسانَ ويصيبه من خير أو شر ، بإذن الله : أى بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس قسمان : كافر بالله مكذب لرسوله لايألو جهدا فى إيصال الأذى بهم ، ومؤمن بالله مصدق لرسله وهو يعمل الصالحات - أردف ذلك ببيان أن مايصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظُم التى وضعها فى الكون ، فعلى الإنسان أن يجدّ ويعمل ، ثم لايبالى بعد ذلك عما يأتى به القضاء ، لعلمه بأن مافوق ذلك ليس فى طاقته ، ولن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وأبان أن تولِّى الكافرين عن الرسول لن يضيره شيئا ، فإنه قد أدى رسالته .

وما على الرسول إلا البلاغ ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده ، وهو يكفيه شر ما أهمه .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى ما أصاب أحدا من خيرات الدنيا ولذاتها أو رزاياها وشرورها — فهو بقضاء الله وقدره بحسب ماوضع من السنن فى نظم الكون، فعلى المرء أن يعمل ويجدّ ويسعى لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه أو عن غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم هو لايحزن ولا يغتمّ لما يصيبه بعد ذلك ، لأنه قد فعل ماهو فى طاقته وما هو داخل فى مقدوره ، وما بعد ذلك فليس له من أمره شىء .

obeikandi.com

والخلاصة — إن على المؤمن واجبين :

(١) السعى و بذل الجهد فى جلب الخير ودفع الضر ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

(٢) التوكل على الله بعد ذلك ، اعتقادا منه أن كل شىء يحدث فإنما هو بقضائه وقدره ، فلا يغتم ولا يحزن لدى حلول الشر ، ولا يتمادى فى السرور عند مجىء الخير .

ثم بين أن الإيمان يضىء القلب ، و يشرح الصدر لخير العمل فقال :

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) و يشرح صـــدره ، لازدياد الخير والمضى قُدُما فى طاعة الله ، وأىُّ نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ جدٌّ فى عمل الخير ، واستراحة لدى الغم والحزن ، واطمئنان للنفس ، ووثوق بفضل الله .

(والله بكل شىء عليم) أى والله عليم بالأشياء كلها ، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها ، فاحذروه وراقبوه فى السر والعلن ، كما جاء فى الأثر « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلَّغ ، وافعلوا مابه أمر ، واتركوا ماعنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم عن ذلك فإنما عليه أداء ما حُمل من الرسالة، وعليكم ماحملتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ماعليه ، ولا يكلف شيئا بعد ذلك .

(الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى وحدوا الله وأخلصوا له العمل وتوكلوا عليه ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً » .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوَّى إلا به ، لأنه يعتقد أنه لا قادر فى الحقيقة إلا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكل

عليه ، والتقوّى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، وكأنها تشير إلى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن ، وهى كالخاتمة والفذلكة لما تقدم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

شرح المفردات

فتنة : أى بلاء ومحنة ، ومن يوق : أى من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال ، هو التصدق بإخلاص وطيب نفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وذكر أن المؤمن ينبغى أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه — ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم يثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ولا تتبعوا أهواءهم حتى لا يكونوا إخوان

الشياطين يزينون لكم المعاصى ويصدونكم عن الطاعة ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فغصب المال أو غيره لأجلهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد ، وهو العزيز الحكيم فى تدبير شئون عباده .

أخرج الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين همّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله : « وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا » الآية . وفى رواية عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلنّ ولأفعلنّ ، فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم) أى أيها الذين صدّقوا الله ورسوله : إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يحولون بينكم وبين الطاعات التى تقربكم من ربكم ، والأعمال الصالحة التى تنفعكم فى آخرتكم ، وربما حملوكم على السعى فى اكتساب الحرام ، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده ، يعيّرانه بالفقر ، فيركب مراكب السوء فيهلك » .

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم ، ليكونوا فى عيش رغد فى حياته

و بعد مماته ، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سببا لذلك ، و إن لم يطالبوه فيهلك .

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية وقالوا : إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم ، وجرّعوهم الغُصَص والآلام ، وربما جرّ ذلك إلى وضع السّم فى الدسم أو إلى قتلهم ، وفى المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر .

والخلاصة — إنه إما يراد بالعداوة العداوة الأخروية ، فإن الأزواج والأولاد ربما أضروا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها ، و إما أن يراد العداوة فى الدنيا فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية .

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هناتهم فقال :

(و إن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أى و إن تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها بترك المعاقبة ، وتصفحوا بالإعراض وترك التثريب عليها ، وتغفروا بإخفائها ، وتمهيد معذرتهم فيها ، فهو خير لكم فإن الله رحيم بكم وبهم ، ويعاملكم بمثل ما عاملتم و يتفضل عليكم .

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

(إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار ، إذ كثيرا مايترتب على ذلك الوقوع فى الآثام ، وارتكاب كبير المحظورات.

وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة كما قال : « كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

أخرج أحمد والطبرانى والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل أمة فتنة ، و إن فتنة أمتى المال » .

(والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأولاد وطاعتهم ، فلا تباشروا المعاصى بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ماعند الله من الأجر العظيم .

(فاتقوا الله ما استطعتم) أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

ونحو هذا ماجاء فى قوله: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »

(واسمعوا وأطيعوا) أى كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به ، ولا تحيدوا عنه يَمْنة ولا يَسرة ، ولا ترتكبوا مانُهيتم عنه .

(وأنفقوا خيراً لأنفسكم) أى وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا ، وذلك خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ؛ وهذا حثّ على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل مايرجو ، ونيل كل مايبغى فى دينه ودنياه ، فيكون محبباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوّهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جناته .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال :

(إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، متقرّبين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويستر لكم مافرط من زلاتكم ؛ جاء فى الصحيحين : «إن الله يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم » ؟ .

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله : استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، ويشتمنى عبدى وهو لايدرى ، يقول وادهراه وادهراه » وأنا الدهر ثم تلا أبو هريرة هذه الآية » أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه .

ونحو الآية ماجاء فى سورة البقرة : « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ».

ثم بيّن علة المضاعفة ورغّب فى النفقة فقال :

(والله شكور حليم) فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

ثم ذكر مايزيد فى الترغيب فى النفقة أيضا فقال :

(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ماتعملون فهو محفوظ لديه فى أمّ الكتاب ، لايعزب عنه مثقال ذرة ، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء ؛ وهو ذوالعزة والقدرة ، النافذ الإرادة الحكيم فى تدبير خلقه على مايعلم من المصلحة .

خلاصة ماحوته السورة

(١) صفات الله الحسنى .

(٢) إنذار المشركين بذكر ماحلّ بمن قبلهم من الأمم مع بيان السبب فيما نالهم من ذلك .

(٣) إنكار المشركين للبعث .

(٤) بيان أن مايحدث فى الكون فهو بأمر الله وتقديره .

(٥) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لايضيره إصرارهم على الكفر .

(٦) إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .

(٧) الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .

(٨) الحث على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .